

الأخبار“ بار

al-akhbar

المصدر: جريدة الأخبار (<http://www.al-akhbar.com>)

في ذاكرة اللبنانيين: الأموات ينتصرون على الأحياء



سرج برهان

نصرى الصايغ

I - ضد النسيان

الحروب، لا تنسى البتة، ومنها الحروب اللبنانية، وتحديداً، حروب الإخوة الأعداء، في حرب الخمسة عشر عاماً. الحروب، عقل التاريخ، لا قلبه. ولكنها، عندما تنتهي، تقيم في الذاكرة، ومنها، تطل على التوظيف، إما للعبرة، وإما للانتقام. أي تطل على العقل للإفادة، أو على القلب للثأر المستطاع أو الثأر العاجز.

حروب لبنان الداخلية، التي اندلعت في ١٣ نيسان / أبريل ١٩٧٥، أصففت في الذاكرة، وأقامت فيها، تحفر عميقاً في الماضي، وتحفر أكثر في المستقبل. الحروب اللبنانية لم تنت بعد، لم تهدأ بعد، إنها على وشك الحضور العلني، بعد اختبائها في الذاكرة، كلغم معدّ سلفاً، لتشكيل الفوضى الدامية، في لبنان. لذا، يعيش اللبناني، لدى كل صعوبة أو أزمة، محة السؤال: هل ستعود الحرب؟ إنها لن تعود. هي هنا، ولكنها محتجبة عن القتل.

II - كان شيئاً لم يكن إذا، الحرب لا تنسى.

ما معنى مصطلحات تتكرر: العفو، التسامح، الغفران؟ أو، ما دلالة: الاعتبار، لا غالب ولا مغلوب، التعايش، أو، ما قيمة ما يرددّه البعض عن تنظيف الذاكرة اللبنانية، أو، هل بمقدور اللبنانيين النظر إلى فصول الحرب اللبنانية بدقة، من دون الوقوع مجدداً في حروب كلامية تقضي إلى اندلاع العنف وتتسويق الأحقاد وياقظ الثارات وتعيم الفجور الأخلاقي؟

٢٠٠١٤٠٥٠٥١٦٠

لا يقدر لبنان، أن ينظر بطريقة موضوعية إلى حربه، إنه جاء منها، وما زال فيها، ويرى هلاكه! أو خلاصه! باستعادة فصولها، مع تعديل في النهايات فقط.

أليس لذلك، لم يجرؤ لبنان على كتابة تاريخه الرسمي، ليتعلم تلامذته في المدارس؟ أليس خوفاً من حرب أو فتنة أو ما لا تحمد عقباه؟

لذا، يقف لبنان، بعد حروبـه إلى ما يأتي:

«لا غالب ولا مغلوب» و «عـا اللهـ عـماـ مضـيـ».

أي يحدد، بعد كل حربـ، أن الجميع قد منـي بالخـسارـةـ، وأنـهـ لاـ ضـرـورـةـ الـبـتـةـ لـلـاعـتـارـ وـالـنـظـرـ، وـعـلـيـهـ، فإـنـ عـلـىـ الـلـبـانـيـنـ أـنـ يـصـدـرـوـاـ عـفـواـ عـمـاـ اـرـتكـبـ، وـيـدـأـ حـيـاتـهـ، كـانـ شـيـئـاـ لـمـ يـكـنـ.

ـ لكنـ شـيـئـاـ كـانـ، لـكـنـ أـشـيـاءـ قـدـ حدـثـتـ، فـلـيـسـ صـحـيـحاـ أـنـ الـلـبـانـيـنـ خـرـجـواـ بـصـيـغـةـ لـاـ غـالـبـ وـلـاـ مـغـلـوبـ، وـلـاـ عـفـاـ اللـهـ عـمـاـ مضـيـ».

ـ يـقـلـ الـلـبـانـيـنـ، بـالـتـسـوـيـةـ الـغـامـضـةـ، لـأـنـ الـحـرـوبـ أـسـفـرـتـ عـنـ دـمـرـةـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـحـسـمـ الـعـسـكـرـيـ.

III - يربح من لا يخوض حرباً

صـيـغـةـ لـاـ غـالـبـ وـلـاـ مـغـلـوبـ» غـيرـ دقـيقـةـ، إـنـ لـمـ تـكـنـ كـاذـبـ بـرـمـتهاـ. فـيـ عـامـ ١٩٥٨ـ، خـسـرـ حـلـ العـرـوـبةـ قـضـيـتـهـ، كـمـ خـسـرـ مـعـسـكـرـ الـغـربـ أـحـلـافـهـ. أـيـ، بـطـرـيـقـ التـذـاكـيـ، لـمـ تـرـبـحـ النـاصـرـيـةـ، وـلـاـ رـبـحـ مـشـارـيـعـ الـاحـتـامـاءـ وـالـحـمـاـيـةـ الـعـرـبـيـةـ. لـقـدـ خـسـرـ الـفـرـيقـانـ، وـرـبـحـ الـفـرـيقـ الـثـالـثـ، الـذـيـ اـسـتـطـعـ أـنـ يـأـخـذـ الـلـبـانـ إـلـىـ مـوـقـعـ الـحـيـادـ الـمـتـصـالـحـ، مـعـ الرـئـيـسـ فـؤـادـ شـهـابـ.

ـ صـيـغـةـ لـاـ غـالـبـ وـلـاـ مـغـلـوبـ مـفـضـوـحةـ بـعـدـ حـرـوبـ ١٩٧٥ـ - ١٩٩٠ـ. فـالـحـرـكةـ الـوطـنـيـةـ خـسـرـتـ. مـشـرـوعـ بشـيـرـ الـجـمـيلـ اـنـتـحرـ.

ـ ١٧ـ آـيـارـ سـفـكـ. التـقـيـمـ مـاتـ. الـكـوـنـفـيـدـرـالـيـةـ لـعـنـتـ، إـلـاستـقـلـالـ، يـاـ حـرـامـ. حـرـكـةـ الـمـقاـوـمـ الـفـلـسـطـيـنـيـةـ طـرـدتـ، إـسـرـائـيـلـ هـزـمـتـ،

ـ الـمـارـيـنـزـ دـفـنـواـ هـنـاـ... وـبـرـغـ كـلـ ذـلـكـ، قـيـلـ: لـاـ غـالـبـ وـلـاـ مـغـلـوبـ.

ـ غـيرـ صـحـيـحـ: لـقـدـ غـلـبـ الـلـبـانـ، وـغـلـبـ الـمـارـوـنـيـةـ السـيـاسـيـةـ، وـغـلـبـ القـوـىـ الـلـبـانـيـةـ كـافـةـ، وـوـضـعـتـ تـحـتـ الـوـصـاـيـةـ. خـرـجـ الـلـبـانـ مـغـلـوباـ بـالـمـرـأـةـ، اـقـتـصـادـاـ وـسـيـاسـةـ وـمـسـلـطـةـ وـمـجـتمـعاـ. لـمـ يـتـيـسـرـ لـهـ، غـيرـ مـقاـوـمـةـ، جـاءـتـ مـنـ خـارـجـ القـوـىـ الـمـتـصـارـعـةـ فـيـ الـلـبـانـ وـعـلـىـ الـلـبـانـ، فـفـازـتـ.

ـ لـنـتـذـكـرـ الـأـمـتـولـةـ السـابـقـةـ وـنـضـيـفـ إـلـيـهـ: فـازـتـ الـمـقاـوـمـةـ، وـلـمـ شـتـرـكـ فـيـ حـرـوبـ الـإـخـوـةـ الـأـعـادـاءـ، إـلـاـ لـمـاماـ. وـفـازـتـ مـرـةـ أـخـرىـ، عـنـدـمـاـ حـرـرتـ الـأـرـضـ مـنـ عـدـمـ مـقـيمـ. إـنـمـاـ، عـنـدـمـاـ حـضـرـتـ إـلـىـ بـوـرـةـ الـصـرـاعـ فـيـ الدـاخـلـ، تـوقـتـ عـنـدـمـ خـرـومـ الـمـرـسـومـةـ، فـيـ دـاخـلـ الصـيـغـةـ الـوـهـمـيـةـ: لـاـ غـالـبـ وـلـاـ مـغـلـوبـ».

IV - العـفـوـ الـمـلـفـوـمـ

ـ الـحـيـةـ الـتـيـ اـخـترـعـاـ الـلـبـانـيـنـ، لـإـنـهـ الـحـرـبـ وـبـدـءـ مـرـحـلـةـ جـديـدةـ، مـأـخـوذـةـ مـنـ الـمـأـثـورـ الشـعـبـيـ «عـاـ اللـهـ عـمـاـ مضـيـ»ـ. وـهـذـاـ الـمـأـثـورـ، يـعـيـيـ المـتـحـارـبـينـ مـنـ أـيـ مـسـؤـولـيـةـ. فـالـمـاضـيـ، الـمـشـبـعـ بـالـحـرـوبـ وـالـدـمـاءـ، هوـ فـيـ عـهـدـ اللـهـ، وـهـوـ غـفـرـ رـحـيمـ. أـيـ، لـاـ مـسـؤـولـيـةـ الـبـتـةـ عـلـىـ مـنـ اـرـتـكـبـ جـرـائمـ الـحـرـبـ وـالـتـهـيـجـ وـالـقـتـلـ الـجـمـاعـيـ، وـالـخـطـفـ، وـالـتـصـفيـةـ الـجـسـديـةـ، وـالـتـعـذـيبـ، وـالـسـرـقةـ، وـالـتـدـمـيرـ الـمـنهـجيـ، وـالـلـلـصـوصـيـةـ، وـالـلـلـصـوصـيـةـ، وـتـجـارـةـ الـجـثـثـ.

ـ كـلـ هـذـهـ «ـالـمـاثـرـ»ـ الـدـمـوـيـةـ، تـقـعـ فـيـ الـحـضـانـةـ الـإـلـهـيـةـ، وـعـلـيـهـ أـنـ يـتـدـبـرـ أـمـراـهـ. وـمـاـ يـقـالـ هـنـاـ، لـيـسـ مـنـ بـابـ السـخـرـيـةـ أوـ التـشـفـيـ، فـلـبـانـ، لـمـ يـعـاقـبـ أـحـدـاـ عـلـىـ مـاـ اـرـتـكـبـ إـيـانـ الـحـرـبـ، عـفـاـ الـقـتـلـةـ عـنـ أـنـفـسـهـمـ بـالـتـنـامـ وـالـكـمالـ.

ـ هـلـ كـانـ يـمـكـنـ أـنـ يـحـدـثـ غـيرـ ذـلـكـ؟

ـ فـيـ زـمـنـ الـعـمـانـيـنـ، وـبـعـدـ فـتـتـةـ ١٨٦٠ـ، جـرـتـ مـلـاحـقـاتـ لـمـجـرمـيـ الـحـرـبـ، مـنـ قـبـلـ الـسـلـطـةـ الـعـمـانـيـةـ. فـيـ زـمـنـ «ـالـحـضـارـ الـلـبـانـيـةـ»ـ، يـرـتـعـ الـمـجـرـمـونـ بـمـكـاـبـبـهـمـ فـيـ الـسـلـطـةـ.

ـ جـوابـاـ عـلـىـ السـؤـالـ الـأـنـفـ: لـيـسـ بـاسـتـطـاعـةـ الـلـبـانـ أـنـ يـلـزـمـ قـادـتـهـ بـتـقـديـمـ جـرـدةـ حـسـابـ عـنـ أـفـعـالـهـ، وـلـاـ بـمـقـدـورـهـ اـسـتـبـدـالـ هـذـهـ الـقـيـادـاتـ بـسـوـاـهـاـ، لـسـبـبـ بـسيـطـ جـداـ، وـهـوـ أـنـهـ لـاـ يـحـسـنـ اـخـتـيـارـ غـيرـهـاـ أـوـ يـتـمـسـكـ بـهـاـ تـمـسـكـ مـبـرـماـ. (ـكـلـ فـرـيقـ يـتـمـسـكـ بـقـائـدـهـ، مـهـمـاـ كـانـ سـجـلـ الـحـرـبـ).

ـ وـلـاـ يـسـتـغـرـبـ أـبـدـاـ، أـنـ الـلـبـانـ، لـاـ يـنـتـجـ قـيـادـاتـ جـديـدةـ. إـنـهـ هـيـ ذـاـتـهـ، لـأـنـهـ تـخـرـجـتـ مـنـ الـمـدـرـسـةـ نـفـسـهـ. لـمـ يـتـيـسـرـ لـلـبـانـيـنـ إـنـتـاجـ ثـقـافـةـ سـيـاسـيـةـ جـديـدةـ، بـدـيـلـةـ عـنـ الـقـافـةـ الـقـبـلـيـةـ وـالـطـافـيـةـ الـمـوـرـوثـةـ، وـلـمـ يـجـدـ فـيـ سـلـمـ قـيمـهـ وـأـخـلـاقـهـ لـيـصـيرـ عـلـىـ سـوـيـةـ الـمـسـاعـلـةـ وـالـمـحـاسـبـةـ، وـاحـتـرـامـ الـقـوـانـيـنـ، لـمـ يـصـلـ بـعـدـ إـلـىـ رـتـبـ مـبـدـئـ قـادـرـ عـلـىـ تـهـجـنـةـ الـشـرـعـةـ الـدـولـيـةـ لـحـقـوقـ الـإـنـسـانـ فـيـ سـلـوكـهـ، وـعـلـيـهـ، فـإـنـهـ يـتـمـسـكـ بـقـيـادـاتـ الـمـتـكـرـرـةـ، بـأـسـمـاءـ مـخـلـفـةـ، لـتـمـيـلـ الدـورـ الـمـرـسـومـ، عـلـىـ مـسـتـوـيـ الـكـفـاءـةـ الـطـافـيـةـ، وـالـقـيـمـ الـسـافـلـةـ الـلـطـافـيـةـ.

ـ أـمـثـولـةـ لـلـمـسـتـقـلـ: لـاـ يـمـلـكـ الـلـبـانـيـنـ ذـاـكـرـةـ وـاحـدـةـ. إـنـهـ مـوـزـعـةـ عـلـيـهـمـ بـعـدـ طـوـافـهـ. الـذـاـكـرـةـ الـلـبـانـيـةـ، هـيـ ذـاـكـرـةـ طـوـافـهـ الـمـنـقـاتـةـ وـالـمـتـخـاتـلـةـ. تـأـسـيـسـ ذـاـكـرـةـ مـوـحـدـةـ، قـدـ يـطـوـلـ زـمـنـهـ.

V - نظامـ الـمـسـاعـلـةـ

ـ مـنـ التـجـارـبـ الـمـفـيـدـةـ، شـعـوبـ تـعـلـمـتـ مـنـ حـرـوبـهـ. مـنـظـمـاتـ مـدـنـيـةـ الـلـزـمـتـ سـلـطـاتـهـ بـمـرـاجـعـةـ تـارـيـخـهـ وـإـعادـةـ كـتـابـتـهـ وـقـقـ منـطـقـهـ الـاعـتـارـ، لـأـنـ مـنـ ضـمـنـ الـلـيـةـ الـوـصـفـ الـتـارـيـخـيـ، أـعـنـيـ، أـنـ مـنـ اـرـتـكـبـ الـحـرـوبـ، لـنـ يـقـدـمـ عـلـىـ الـاعـتـارـ بـهـاـ، لـاـ هـوـ، وـلـاـ وـرـثـهـ.

ـ مـنـ خـالـلـ اـسـتـقـراءـ تـجـرـبـةـ التـسـامـحـ وـالـغـفـرانـ الـتـيـ حـصـلـتـ فـيـ جـنـوبـ أـفـرـيـقيـاـ، وـتـلـكـ الـتـيـ الـلـزـمـتـ فـيـهـ أـلمـانـيـاـ وـالـلـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدةـ الـأـمـيرـكـيـةـ وـالـلـيـابـانـ، عـلـىـ التـعـوـيـضـ، عـلـىـ مـاـ اـرـتـكـبـهـ فـيـ بـعـضـ حـرـوبـهـ، يـمـكـنـ تـسـجـيلـ مـاـ يـأـتـيـ:

ـ أـوـلـاـ: لـمـ يـكـنـ مـقـصـودـاـ، أـنـ يـقـوـمـ نـظـامـ التـميـزـ الـعـنـصـريـ عـلـىـ وـصـفـ مـاـ أـبـدـعـهـ اللـهـ الـإـجـرـامـ وـالـنـبذـ وـالـاستـعـيـادـ وـالـتـعـذـيبـ وـالـسـجـنـ وـالـقـتـلـ وـالـنـفـيـ وـالـإـبـادـةـ. كـانـ النـظـامـ قـوـيـاـ، وـلـمـ يـضـعـفـ النـظـامـ، وـتـغـيـرـتـ وجـهـةـ الـسـلـطـةـ فـيـهـ، وـاسـتـبـدـلـتـ تـقـافـةـ الـعـنـصـريـةـ بـتـقـافـةـ الـمـوـاطـنـةـ وـالـمـسـاـوـةـ وـالـعـدـالـةـ وـإـلـاءـ التـميـزـ، أـقـدـمـتـ الـقـوـىـ الـجـدـيدـةـ عـلـىـ:

ـ أـ وـصـفـ مـوـضـوعـيـ وـمـفـصـلـ، لـمـ اـرـتـكـبـهـ الـنـظـامـ الـعـنـصـريـ فـيـ جـنـوبـ أـفـرـيـقيـاـ.

- بـ - الاعـترـافـ العـلـنيـ بـهـذـهـ الـاـرـتكـابـاتـ وـإـدـانـتـهـاـ.
- جـ - التـعـويـضـ المـادـيـ وـالـمـعـنـوـيـ عـلـىـ الضـحـاياـ وـالـمـتـضـرـرـينـ.
- دـ - النـدـمـ عـلـىـ مـاـ اـرـتكـبـ.
- هـ - التـسـامـحـ وـالـعـفـوـ.

ملاحظة: لبنان يبدأ بالغفو عما مضى. ما قبل ذلك، محرّم.
ثانياً: أقدمت ألمانيا، بعد انهيار النازية، على التعويض، مع سويسرا على ضحايا الحرب، وتحديداً على اليهود. (تحولت هذه العملية إلى ابتزاز دائم).

ثالثاً: بعد سقوط الإمبراطورية اليابانية في الحرب العالمية الثانية، وإدانة قياداتها، اعترفت اليابان بما ارتكبته، ودفعـت تعويضات كبيرة لضحاياها.

رابعاً: بعـدـ زـالـ نـظـامـ الفـصـلـ العـنـصـريـ فـيـ الـوـلـايـاتـ الـمـتـحـدـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ، قـبـلـ وـاشـنـطـنـ وـبـصـعـوبـةـ، وـبـعـدـ مـطـالـبـ اـمـتـدـتـ لـعـقـودـ، بـمـبـدـأـ التـعـويـضـ عـمـاـ اـرـتكـبـهـ مـنـ عـمـلـيـاتـ إـرـاءـ الـأـمـيرـكـيـينـ مـنـ أـصـلـ يـاـبـانـيـ فـيـ الـحـربـ. كـمـ دـفـعـتـ مـبـالـغـ رـمـزـيـةـ، لـبعـضـ الـمـتـضـرـرـيـنـ مـنـ حـرـوبـ الـإـبـادـةـ الـأـمـيرـكـيـةـ لـلـهـنـودـ فـيـ بـلـدـهـ.

خامساً: لم تقر المجموعة الأوروبية، مدعومة من واشنطن، بالاعتراف بما ارتكبته في زمن الاستعمار، كي لا تلزم بدفعـ التعويضات لـضـحـاياـ الـاستـعـبـادـ وـالـقـتـلـ وـالـنـفـيـ وـالـسـرـقةـ فـيـ الـمـسـتـعـمـرـاتـ السـابـقـةـ.

امثلة للمستقبل: يقول داريدا: الجرائم ضد الإنسانية لا يمحوها الزمن. يجب أن تعاقب، لا مرور زمناً على جريمة إنسانية. أمام اللبنانيين، في زمن لاحق، فرصة الدينونة، فـماـ اـرـتكـبـهـ زـعـمـاءـ الـحـرـوبـ الـلـبـانـيـةـ الـحـاـكـمـونـ بـعـدـ الـحـربـ أـيـضاـ، لـنـ يـنـسـىـ.

VI - الموت الأخلاقي

متى يتأهل لبنان لـلتـعـافـيـ ذـاـكـرـتـهـ مـنـ آـثـامـ الـحـربـ؟

التجارب الواردة أعلاه، تفيد بشكل حاسم، أن المسؤول عن ارتكاب جرائم الحرب، اثنان: ثقافة ونظام.

التمييز العنصري ثقافة، استلحتق بنظام عرقي، الصهيونية ثقافة، ابتدع لها نظام وأرض ودولة، الاستعمار ثقافة ونظام.

العلومـةـ ثـقـافـةـ وـنـظـامـ، النـازـيـةـ ثـقـافـةـ وـنـظـامـ، وـالـطـائـفـيـةـ كـذـلـكـ ثـقـافـةـ وـنـظـامـ.

الثقافة الطائفية السائدة في لبنان، على مستوى النخب والجامعات والإعلام والمعاهد والمدارس والبيوت والأندية والإلقاء «المتوزن»!!! هي ثقافة مؤسسة على التمييز الطائفي، الملزم بالتعايش في زمن السلم، على زغل، والمذهل في زمن الأزمات، للتناشـ وـالـقـاتـلـ، هي ثقافة رفض الآخر بالعقل والقلب معاً. هي ثقافة تؤسس مستواها المعرفي من خلال توظيف الذاكرة كـحـجـةـ عـلـىـ صـحـةـ عـقـيـدـتهاـ الطـائـفـيـةـ.

أما المسؤولية الثانية فتقع على النظام اللبناني، الذي يرعى أو يتـساـكـنـ معـ هـذـهـ التـقـافـاتـ وـقـواـهـاـ الـطـائـفـيـةـ الـحـيـةـ، بـذاـكـرـاتـهاـ.

الجمعيـةـ المـفـتوـنةـ بـالـانتـقـاءـ الدـموـيـ.

وعـلـيـهـ، فإـنـ لـبـانـ لـيـسـ جـديـراـ، ماـ دـامـ يـرـزـحـ تـحـ وـطـأـ ثـقـافـةـ وـنـظـامـ مـتـزاـوجـيـنـ مـعـ الطـائـفـيـةـ، أـنـ يـنـظـفـ ذـاـكـرـتـهـ، وـأـنـ يـأخذـ العـبرـ منـ حـرـوبـهـ، وـأـنـ يـلـجـأـ إـلـىـ التـوـبـةـ كـأـنـ يـعـلـنـ وـيـتـبـئـ عـلـىـ المـلـأـ:

١ - عدم اللجوء إلى العنف أبداً: العنف اللغطي، العنف التميزي، العنف المادي والعنف الاقتصادي.

٢ - احترام القوانين وجعلها السلطة العليا.

٣ - القبول بمبدأ المساواة التامة أمام القانون، لمجموع المواطنين.

٤ - احترام مبدأ الحرية الفردية ضمن دائرة الوطن.

٥ - الحث على المساءلة والمحاسبة.

قبل أن نصل إلى إقرار هذه المبادئ وممارستها، سيبقى اللبنانيون أسرى طفاء للحروب المقبلة.

امثلة للمستقبل: لم تقم سلطة على الاعتراف بمسؤوليتها عن جرائمها المرتكبة في الحرب، إلا بعدما ابتدعت منظمات المجتمع المدني وسائل وآليات ضغط على السلطة، واللبنانيون، في منظمات مجتمعهم المدني، لم يبذلوا بعد الحد الأدنى من الضغط، والدليل، أن عدد المخطوفين والمفقودين يتعدى الخمسة عشر ألفاً، وإذا أحصي أهلهم وأقاربهم وأصدقاؤهم الأحياء فإن عددهم يجب أن يصل إلى تسعين ألفاً، ومع ذلك، فإن تلبية الدعوات لدعم مطالب أهالي المخطوفين والمفقودين، لا تصل إلى المئات، إننا مجتمع ميت أو يتحضر للموت الأخلاقي.

* كاتب لبناني